المقدمة

أصبحت مصر بعد إنتهاء حكم المماليك جزءا من الدولة العثمانية . فقد دخل السلطان سليم الأول عاصمة الديار المصرية ظافراً عام ١٥١٧م . وقد ظل النظام الإدارى والسياسى الذى وضعه السلطان سليم الأول ، وعدّله السلطان سليمان القانونى معمولاً به منذ ذلك الوقت حتى نهاية القرن الثامن عشر الميلادى .

وكان هذا النظام يقضى بأن تتألف هيئة الحكم : من الوالى وهو "الباشا" وكان يعينه السلطان العثمانى ليكون نائباً عنه ، ومقره القلعة بالقاهرة . وإلى جانبه الأمراء المماليك ويلقبون "بالسناجق" وهم الحكام المحليون ، ثم رؤساء "الوجاقات" أى فرق الجيش ، ثم ممثلو الشعب وهم : العلماء وعلى رأسهم "شيخ الأزهر" ونقيب الأشراف ، ومشايخ الطرق ، ومعهم كبار التجار والأعيان . ومن هؤلاء جميعاً يتألف "الديوان الكبير" . وهو يفصل فى الأمور الهامة والقضايا الكبيرة : كمسائل الحرب والسلم والصلح فى المنازعات بين الأحزاب ، وفرض الضرائب الجديدة أو رفعها .

ويعقد "الديوان الصغير" من الهيئات الأولى ماعدا ممثلى الشعب . وهو ينظر فى المسائل الإدارية وينجز الأعمال ويصدر القرارات فى الأمور كلها التى تعرض للدولة ولا يكون لها آثار عامة على حياة الأمة .

ويمكن - مع الفارق الكبير من حيث قاعدة التمثيل النيابى واستمداد السلطة - تشبيه الديوان الكبير "بالبرلمان" والديوان الصغير بمجلس الوزراء . وكان "السناجق" أى كبار المماليك يوزعون الاختصاصات فيما بينهم : فأحدهم هو "الدفتردار" وهو فى مقام وزير المالية ، و"أمير الحج" ، و"الخازندار" أو "السردار" إلى غير ذلك .

وفى أواخر القرن الثامن عشر وصل النظام العثمانى إلى عجز عن تحقيق الخير والحكم الصالح للمصريين . ولكن هذه الإمبراطورية المترامية الأطراف عمتها الثورات فى النصف الثانى من القرن الثامن عشر : على بك الكبير فى مصر ، والجزار باشا فى الشام ، وعلى باشا فى ألبانيا ، ، والوهابيون فى بلاد العرب والشعوب المسيحية فى البلقان وخاصة اليونانيين . وفى الوقت نفسه ازداد ضغط الدول الأوروبية - خاصة

الروسيا والنمسا - على الدولة العثمانية فى شبه جزيرة البلقان . وكانت الحملة الفرنسية على مصر فصلاً من فصول هذا الضغط ، وهو فصل جديد ، وقد كان أول تعد أوروبى على بلد شرقى إسلامى من بلاد الدولة العثمانية .

الأحوال الاقتصادية:

عندما سيطر العثمانيون على مصر أدركوا أهمية مركزها كطريق تجارى ، وحاولوا العمل على إنعاش تجارتها بعد ما أصابها من الهبوط لتحول طريق التجارة العالمية إلى رأس الرجاء الصالح .

وقد رحب السلطان سليم بعد فتح مصر بممثلى البندقية ، وعقد معهم معاهدة فى فبراير سنة ١٥١٧م ، منحتهم الامتيازات التى تمتعوا بها فى عهد السلاطين المماليك.

وفى أثناء الحكم العثمانى فى مصر ، وجدت عدة محاولات لإعادة طريق التجارة القديم إلى أهميته السابقة . ففكر السلطان سليمان القانونى فى حفر قناة تصل البحر الأحمر بالبحر الأبيض المتوسط فى سنة ١٥٢٩م . وحاول سنان باشا فاتح اليمن شق هذه القناة سنة ١٥٦٩م . وحاول أيضاً مراد الثالث إيصال هذين البحرين فى سنة ١٥٨٦م.

وفى أثناء القرنين السابع عشر والثامن عشر اتجهت فرنسا ، وانجلترا ، والنمسا إلى إحياء الطريق القديم . وبذلت مساع لدى السلطان العثمانى فى القسطنطينية ولدى أمراء المماليك فى القاهرة ، وخاصة فى الفترات التى أصبحت لمصر فيها شخصية بارزة ، فى عهد على بك الكبير ، ومحمد بك أبى الذهب . إلا أن هذه المساعى ذهبت سدى .

أولاً : عندما وجد السلطان الدول الأوروبية شديدة الحرص على تنفيذ مشروعاتها فى مصر أدرك الخطر الذى يتعرض له من جراء تغلغل النفوذ الأوروبى فى أملاكه .

ثانياً : لأن الاتفاق مع أمراء المماليك فى القاهرة لم تكن له قيمة عملية ، وذلك بسبب النزاع الداخلى على الحكم .

وهكذا لم ينشط طريق مصر التجارى إلا عندما أحيا محمد على الطريق البرى بين السويس والقاهرة ، ولم ترجع إليه أهميته السابقة إلا عندما حفرت قناة السويس فى عهد سعيد وإسماعيل .

وعلى الرغم من كل هذه الظروف فإنه لم يقض نهائياً على تجارة مصر ، بل ظلت مصر مركزاً للتجارة بين الشرق وأوروبا ، ولكن بشكل محدود .

وقد كانت لمصر تجارة مهمة مع بلاد العرب ، وحملت السفن من جدة إلى السويس البن ومتاجر الهند مثل الفلفل والكافور واللآلئ والأقمشة الحريرية وكذلك وجدت قوافل مهمة بين مصر والسودان . وسارت القوافل من السودان إلى مصر عن طريق دارفور فالواحة الخارجة فأسيوط ، أو عن الطريق الموازى للنيل من سنار إلى أسوان . ومن أهم واردات مصر من السودان العاج وريش النعام والأبنوس والمسك والصمغ .

واستوردت مصر من شمال إفريقيا بطريق القوافل أيضاً المصنوعات الجلدية والحبوب والبلح .

أما من البلقان والأناضول والشام فقد استوردت مصر أنواعاً من الخشب والزيوت والصابون والفواكه .

وقد وجدت لمصر تجارة خارجية مع الدول الأوروبية مثل فرنسا وإيطاليا . وعنيت هذه الدول بوضع تفصيلات العمليات التجارية وبتحديد أصناف صادراتها وباختيار أشخاص القناصل والتجار ، وذلك لرفع مستوى التجارة . وهكذا فعلت غرفة التجارة فى مارسيليا .

أما الصادرات المصرية فتنحصر فى الأرز والبن والقمح وتوابل الهند والصمغ ، والبقول الجافة ، والقطن والسكر والأقمشة القطنية والجلود والأعشاب الطبية التى كانت ترسل إلى أوروبا .

وكذلك صدرت مصر بعض منتجاتها الزراعية وبعض وارداتها من أوروبا إلى السودان وجدة والهند .

وكانت التجارة مع أوروبا والقسطنطينية فى صالح مصر ، فكانت مصر تستورد

كميات من العملة من فرنسا وإيطاليا والقسطنطينية ، إلى جانب المتاجر المتبادلة .

وكانت تجارة مصر مع السودان متعادلة .

ولكن تجارة مصر مع جدة والهند لم تكن فى مصلحة مصر فأرسلت إلى هذه الجهات مقادير من العملة إلى جانب أصناف البضائع .

ديوان الروزنامة:

كان تابعاً للديوان الدفترى ومهمته جمع الأموال الأميرية وصرفها فى الأبواب المختلفة تحت إشراف الديوان الدفترى ، وكان يقوم بالعمل فيه أفندية من الكتاب مدحهم المؤرخون المعاصرون ووصفوهم باللباقة والحساسية ودماثة الخلق ، وآثارهم المودعة فى دار المحفوظات المصرية بالقلعة تنبئ عن دقتهم فى العلوم الحسابية والشئون الإدارية والزراعية وجباية الأموال ، وجمال خطوطهم ينبئ عن مهارة خطية ترتفع إلى مصاف كبار الخطاطين .

وقد سيطر على الروزنامة طوال العصر العثمانى جو من السرية والتكتم . وتعددت الأوامر فى وثائق ذلك العصر بألا يفشى أحد الأفندية شأناً من شئون الروزنامة. وضمن لهم سرية أعمال الروزنامة تحريرهم دفاترهم ومعظم أوراقهم بخط القيرمة الذى تصعب قراءته إلا بعد التمرين الطويل على مختلف قوالب الكلمات والجمل.

نظام إلتزام الأراضى والضرائب:

وقد ارتبط نظام الزراعة فى مصر بنظام تحصيل الضرائب ، وعلى نسق يضمن إدارتها لحساب السلطان . والسلطان لم يكن يسرف فى استغلال مصر من الناحية المالية ، ولم يكن يستفيد إلا قدراً من المال يعرف "بالخزينة" والتى كان يصرف جزء منها فى بعض الأحيان فى مصر ذاتها .

أما خراج مصر فكان يصرف أغلبه فى إدارة البلاد والمحافظة عليها ، وفى تزويد الأراضى المقدسة بالأموال والغلال .

أما حاصلات البلاد فإن السلطان سليمان صرح بأنه المالك الحر لأرض مصر فكانت له ملكاً وكان يفرقها إقطاعات على مزارعين يدعوهم "الملتزمين" . وكان الفلاحون الذين يحرثون الأرض يتمتعون بنصيبهم منها ويورثونها لأعقابهم ولكنهم كانوا مجبورين على العمل فيها بدون حق التصرف فيها وعليهم خراج يدفعونه للملتزمين . وكان على كل من الملتزمين والفلاحين خراج يدفعونه إما نقداً أو عيناً فإذا تأخر الفلاح عن الدفع يمنع من نيل نصيبه وإذا تأخر الملتزم تؤخذ الأرض منه .

وإلى جانب الأموال التى كانت تجمع من الأراضى الزراعية كانت هناك ضرائب أخرى مثل رسوم الجمارك وضرائب على بعض الموظفين نظير انتفاعهم برسوم معينة مثل ضريبة الكشوفية المفروضة على الكشاف وعلى الدفتردار وعلى بعض أفندية الروزنامة ، والباشا نفسه كان يحصل منه "مال ميرى" نظير انتفاعه ببعض الإلتزامات.

ووجدت ضرائب متنوعة على الأسواق وعلى المرور وعلى خروج ودخول الأجانب، وضرائب لاختراق مناطق يسيطر عليها اللصوص وقطاع الطرق . وكثيراً ما كان أمراء المماليك أثناء القرن الثامن عشر يفرضون على التجار الأجانب مغارم استبدادية لا يستطيعون التخلص منها . فضجوا بالشكوى إلى حكوماتهم .

وقد كانت الزراعة مصدر ثروة مصر فى كل عصور التاريخ . وامتازت الأرض المصرية بوفرة طميها وخصبها ووزعت مصر المحصولات اللازمة للاستهلاك الداخلى، والتى يصدر جزء منها إلى الخارج .

وإلى جانب الزراعة قامت صناعات ريفية مرتبطة بها ، وخاصة المنسوجات التى تنوعت على حسب إنتاج كل إقليم .

وفى المدن وجدت أيضاً صناعات متنوعة . وانقسم أصحاب الصناعات الرئيسية إلى طوائف ، وغدا أصحاب الصناعة الواحدة يكونون نقابة تشرف على كل ما يتعلق بشئون تلك الصناعة . فنقابة النساجين مثلاً تضع شروط الصناعة وتفاصيلها وتحدد أنواع الأنوال والصباغة المستعملة ، والصفات التى يجب أن

تتـوافر فى النسيج ، ثم تضع الأسعار . وكذلك تشرف النقابة على المشتغلين بهذه الصناعة .

ومن الصناعات القديمة فى مصر والتى وجدت فى العصر العثمانى صناعة النسيج والسجاد . فوجدت مصانع لنسج الكتان والحرير والقطن والسجاد فى بعض الأماكن فى مصر مثل القاهرة والمحلة الكبرى وسمنود ودمياط والفيوم وبنى سويف . ووجدت بعض المنسوجات الدقيقة من الحرير والكتان والصوف فى القاهرة وإمبابة والجيزة وطنطا . ووجدت صناعات أخرى فى أماكن مختلفة مثل صناعة السكر وعصر الزيوت ، والفخار والزجاج ، وغلايين التدخين ، والحفر على الخشب .

وقد ظهرت آثار الفوضى والقلاقل فى الصناعة وفى حياة الصناع ، فهبط مستوى الصناعة ونقص الإنتاج .

وقد وجدت طبقات فقيرة من الصناع ، وكان معظمهم يتناول أجوراً منخفضة ، ولم يجدوا ما يكفى حاجتهم الضرورية وسكنوا أكواخاً ، وكانت نساؤهم يؤدين بعض الأعمال لمساعدة أسراتهم الفقيرة .

الأحوال الإجتماعية :

النقابات :

كان للنقابات فى العصر العثمانى ناحية اجتماعية تهذيبية ، فأوجدت بين أهل الصناعة نوعاً من الارتباط والتعاون ، وكانت تحرص على أن تحفظ لهم مستوى معيناً من الأخلاق والحياة . وكانت هذه الجماعة تدير شئونها بنفسها وتتولى تأديب المخطئ من بين أصحاب الصناعة . وفى بعض الأحيان أشرف رجال الإنكشارية على بعض الصناعات والمهن فى مصر .

وعلى الرغم من أعمال الإشراف والتنظيم التى قامت بها النقابات فإنها كانت عاملاً من عوامل الجمود . ومانعاً للتقدم والابتكار .

وتعتبر النقابات (التى يسميها الجاحظ بالأصناف) من أبرز المؤسسات فى العصور الوسطى ، وقد كان لكل حرفة نقابتها وتقاليدها وقانونها الذى يدور حول

حماية الصانع والمستهلك على السواء فيحقق للأول سهولة الحصول على المواد الخام ويمنع الاحتكار ويعمل على رفع مستوى الصانع الاجتماعى ، ويضمن للثانى جودة المصنوع ويضرب بيد من حديد على الغش والتدليس . وكان شيخ الصنعة هو المهيمن على أفراد نقابته والموجه لهم فى فنهم ويليه النقيب ثم المعلم ثم الأوسطى ثم الصبى. ولم يكن دخول أى شخص فى حرفة ما من الأمور السهلة ، إذ كان لا يسمح بممارسة المهنة إلا إذا كان معترفاً به فى النقابة ، ولا يعترف به فى النقابة إلا إذا مر بالخطوات الضرورية لتكوين الصانع ، وقد كان رجال كل حرفة لا يمرنون أحداً على صنعتهم إلا من يكون من أبنائهم أو ممن يمتون لهم بصلة وثيقة ، وكانت أسرار كل صنعة تلقن شفوياً وتدرس عملياً بين جدران المصانع ، وكان على الصبى الذى يتمرن على صناعة ما أن يتقن صنعته ويحصل من شيخ الصنعة على إجازة بأنه حذق الصنعة وينادى به شيخ الصنعة "أسطى" فى صنعته ويصبح بالتالى عضواً فى نقابته . وكان أرباب الحرف يسيرون فى المهرجانات الشعبية .

أما الأعياد والحفلات : فقد وجدت فى العصر العثمانى وكانت متعددة إتصل بعضها بالحياة الدينية فى مصر . فمن ذلك عيد مولد النبى صلى الله عليه وسلم ، وحفلات شهر رمضان ، وعيد الفطر وعيد الأضحى ، وحفلة رحيل المحمل والحجاج إلى مكة والمدينة ، وحفلة استقبالهم بعد الرجوع من الحجاز . وتقام حفلات فى هذه المناسبات الدينية يحضرها رجال الحكم والأعيان ، وتحتشد الجماهير فى الطرق والميادين حيث تقام الألعاب المختلفة ، وتضاء الأنوار والمشاعل عندما يخيم الليل.

وفى وصف للجبرتى لليلة من ليالى المولد النبوى الشريف يقول : "واستهل شهر ربيع الأول بيوم الخميس سنة ١٢١٧ هـ فيه شرعوا فى عمل حلوى المولد النبوى وعملوا صوارى ووقدة قبالة بيت الباشا وبيت الدفتردار ونصبوا خياماً . ونودى يوم الجمعة ثامنه بتزيين البلد وفتح الأسواق والحوانيت والسهر بالليل ثلاث ليال أولها صبح يوم الجمعة وآخرها الأحد ليلة المولد الشريف فكان كذلك (وفى ليلة المولد) حضر الباشا إلى بيت الدفتردار بإستدعاء وتعشى هناك واحتفل كذلك الدفتردار وعمل

له صواريخ .... إلى آخره .

وأما خروج المحمل ، فكان يجرى الاحتفال به ، عادة فى النصف الأخير من شهر شوال ، من كل سنة يجتمع لذلك ، فى ميدان القلعة ، الوالى ، أو نائبه ، وكبار المماليك ، وأمير الحج ، والعلماء ، والأعيان . ثم يمر الجمل ، الذى يحمل المحمل ، فى شوارع القاهرة الكبرى . وتسير الجمال تحمل روايا الماء والقرب ، ثم طوائف الجند وخلفهم أمير الحج ، ثم رجال الطرق الصوفية ، يحملون البيارق ، والطبول ، والزمور ، ومن خلفهم المحمل . والناس على جوانب الطريق ، أو سائرون خلفه ، يتبركون به .

وكان يحتفل بعودة المحمل أيضاً ، عندما يتيسر للحجاج ، وأميرهم ، أن يعودوا .

ومن الأيام التى كان يبتهج فيها أهل القاهرة ، ويحتفلون بها ، ويشاركهم فى ذلك أهل المدن الأخرى ، يوم الرؤية . أى رؤية هلال رمضان . حيث كانوا يزينون بيوتهم بالأعلام ، ويضيئونها ، ليلاً ، بالقناديل .

ووجدت أعياد محلية فى خارج القاهرة مثل الإحتفال بمولد السيد البدوى فى طنطا .

وكان من أهم الأعياد فى مصر عيد فتح خليج القاهرة عند ارتفاع مياه النيل وقت الفيضان . ويرأسه الباشا الذى يحضره فى الصباح وسط موظفيه وأعوانه ، ويحضر أيضاً شيخ البلد والدفتردار وقاضى العسكر ورجال الدين ، والبكوات والكشاف ورجال الحامية وأعيان القاهرة . وتتجمع على ضفة النيل مئات من السفن والقوارب المزينة ، ويخلع الباشا على الكبراء الفراء والهدايا ، ثم يعطى الإشارة فتلقى دمية فى النيل إتباعاً للأساطير القديمة ، وسط عزف الموسيقى وقرع الطبول وابتهاج الشعب المحتشد . ويقطع العمال السد فتنساب المياه فى خليج القاهرة ، وتتسرب إلى الميادين العامة التى تصبح أشبه بالبحيرات . وقبل انصراف الباشا يلقى حفنة من النقود الذهبية والفضية فى المياه .

ومن الظواهر المهمة فى مصر العثمانية استمرار نمو المذاهب الصوفية ، التى

كانت امتداداً لمذاهب المتصوفين فى العصر المملوكى .

وكان لهذه الطوائف الصوفية أثر مهم فى حياة المصريين من نواح متعددة . فأوجدت بين أفرادها نوعاً من التعاون والتآزر والعطف على الفقير ، فكان المحتاج يجد فى تكاياهم وخوانقهم ملجأ ومأوى ، كما كانت مصدراً للثقافة العامة بما يتصل بها من التعليم الدينى والعبادة الروحية ، وبما ينشدونه من الأشعار والأذكار . وكوّن أرباب الطرق الصوفية جماعات قائمة بذاتها ، ولها قوانين ترسم الحدود فى حياة أفرادها ، وتحدد عقوبة المذنب منهم ، ولا دخل للحكومة بها . وكان لمشايخ الطرق الصوفية نفوذ وكلمة عند الحكام ، والجند والمسلحين ، الذين أفاضوا عليهم الأموال والعطايا ، واستغلوا نفوذهم عند الشعب لتهدئة الخواطر وحفظ الأمن . وفى الوقت نفسه كانوا يتوسطون لدى الحكام لمصلحة الشعب عند الشدائد . وبذلك اكتسبوا نفوذاً عند الحكام . والجماهير على السواء .

ووجدت أيضاً طائفة من الشعراء مدحوا السلاطين والباشوات والأمراء وأصحاب السلطة .

وقد راج نوع من الأدب الشعبى مثل قصص أبى زيد الهلالى وألف ليلة وليلة ومواويل عن حياة الريف المصرى . وأولع بعض الباشوات والأمراء ، والعلماء والأغنياء بإنشاء دور الكتب وبجمع الكتب النادرة مثل مكتبة داود باشا فى القرن السادس عشر ، ومكتبة محمد أبى الذهب والشيخ حسن الجبرتى فى القرن الثامن عشر ، عدا مجموعات المخطوطات التى حفظت فى بعض المساجد والتى نقل الكثير منها إلى القسطنطينية .

وظهر بعض العلماء . وقد اتجه المشتغلون بالعلم فى هذا العصر إلى وضع الشروح والتعليقات على المؤلفات السابقة ، وإلى علوم الدين والتصوف ، ولكن مستوى الحياة العلمية كان أميل إلى الهبوط والتأخر بصفة عامة .

والقليل من مؤلفات ذلك العصر له قيمة علمية . ومن المؤرخين ابن إياس ، وعبد الرحمن الجبرتى الذى وضع كتابه المشهور "عجائب الآثار" ويتناول تاريخ مصر حتى الجزء الأول من عصر محمد على .

الأحوال الفنية:

أما عن الفن التشكيلى فى الدولة العثمانية فلعل أهم أقسامه وضوحاً هو الفن المعمارى ، فالعمائر الدينية العثمانية كانت فى أول أمرها حلقة انتقال من الطراز السلجوقى إلى الطراز العثمانى الذى ازدهر فى اسطنبول وبالتالى انتشر إلى سائر أقطار الإمبراطورية العثمانية . وكانت المساجد الصغيرة تتألف من قاعة كبيرة عليها قبة وتسبق القاعة ردهة مسقوفة . أما عمارة الجوامع الكبرى فكانت متأثرة بأسلوب أيا صوفيا المعمارى بعد أن أصبحت مسجداً . وقد نقل عن عمارة أيا صوفيا نظام القبة وأنصاف القبة والتصميم المتعامد كما كان المسجد يصدر بصحن كبير ذى فسقية ويدور فيه رواق ذو عقود وقباب .

ولقد كان العصر الذهبى للعمارة العثمانية على يد المهندس سنان فى القرن العاشر الهجرى (١٦م) وقد أشرف على تشييد شتى الأبنية فى اسطنبول وسائر الأقطار العثمانية . ولاشك فى أن عصره طبع بطابع نبوغه وأساليبه فى العمائر .

أما العمائر المدنية فى الطراز التركى فمنها الخانات ولم تكن تتبع الأسلوب السلجوقى ولكنها تطورت من الخانات المملوكية وكانت عبارة عن صحن كبير تحيط به أروقة ذات عقود وتضم قاعات فى عدة طبقات ، قاعات الطابق الأرضى كانت للمخازن والدواب ، وقاعات الطبقات العليا كانت للسكنى .

أما الأسواق فكانت سلسلة من مربعات على كل منها قبة صغيرة ، وكانت الحمامات مشتقة فى تخطيطها من الحمامات الكلاسيكية .

أما البيوت الخاصة فكانت تتكون من عدة طبقات ، الطابق الأول لغرف الاستقبال ، والطبقات الأخرى لأفراد الأسرة .

وكانت دور الأثرياء تتكون من قسمين أو ثلاثة : الأول للاستقبال (سلاملك) والثانى للحريم (حراملك) وقد يضاف لها قسم ثالث للخدم والملحقات .

وكانت من أهم العناصر المعمارية والزخرفية فى بيوت العصر العثمانى الفسقية فى الصحن والقاعات الواسعة التى لها سقوف .

وفى صناعة المنابر أقبل العثمانيون على استعمال المرمر والطاقات فى الجدران، وكانت المنابر تصنع من الخشب قبل ذلك .

وكان أجمل صفحات التحف المعدنية العثمانية ما تمثل لنا فى الأسلحة التى تفننوا فى صنعها وفى زخرفتها تفنناً ينتزع الإعجاب من كل من يراه .

وفى المتاحف الأوروبية أمثلة كثيرة من الأسلحة العثمانية التى غنمها الأوروبيون فى حروبهم مع العثمانيين ، كما أن متحف طوبقابوسراى باسطنبول غنى بأمثلة كثيرة مما تخلف من السلاطين والأمراء والوزراء . والتأمل فى هذه الأمثلة يدفعنا إلى الظن بأن بعضها لم يصنع لكى يستعمل فى الحرب ولكن لكى يحمل فى الحفلات العامة للبلاط العثمانى ، فزخارفها الكثيرة وأحجارها الكريمة ، والتأنق الفائق فى صنعها تدعونا إلى الإعتقاد بأنها لم تكن لسفك الدماء ولكن كانت للأبهة والخيلاء .

وهذه الأسلحة كانت عبارة عن سيوف وخناجر وخوذات ودروع وزرود مطعمة بالذهب ومرصعة بالأحجار الكريمة .

أما عن صناعة الخزف فقد وصل العثمانيون بها إلى الذروة فى ابتداع تحف زائفة من المصنوعات الخزفية ، وقد إلتقت فى أوانيهم الخزفية مهارة الصانع بعبقرية الفنان حتى لقد أصبحت هذه الأوانى من خير الوثائق التى تجلى فيها جمال الزخرفة العثمانية ، وروعة الفن العثمانى من حيث الألوان وتناسق الأشكال وتوازن الخطوط التى تنم عن سمو فى الذوق ودقة فى الحس .

وفى مبدأ القرن العاشر الهجرى (١٦م) وعلى يد السلطان سليم ظهرت تلك الصناعة فى إزنيك . وكان قد استقدم من تبريز بعض الفنانين الذين يشتغلون بتصوير الكتب وزخرفتها وتذهيبها وأسهموا فى رسم الموضوعات الزخرفية التى أقبل عليها الخزفيون فى إزنيك ، وكانت العناصر الزخرفية قريبة جداً من الطبيعة وتمثل مختلف رسوم الزهور إلى جانب عناقيد العنب والرمان .

أما عن المنسوجات فقد ازدهرت صناعة النسيج فى الإمبراطورية العثمانية ،

وكان أهم منتجاتها الديباج والمخمل (القطيفة) ومعظم هذه المنتجات كان فيما بين القرنين العاشر والثانى عشر بعد الهجرة (١٦ - ١٨م) ، وأكثر ما وصلنا من المنسوجات العثمانية هو من الوشى والمخمل .

وقد كشفت المخطوطات العثمانية التى عثر عليها فى مكتبة طوبقابو عن مدى عناية الدولة العثمانية بصناعة النسيج ، ومدى حرصها على تقدم هذه الصناعة .

وقد ألقت هذه المخطوطات - التى أشار إليها ، الأستاذ تحسين أوز - الأضواء على هذه الصناعة وأوضحت بالصور جانباً منها .

وكانت بالقصر خزانة للكسوات يحفظ بها ما يصنع فى دار الطراز ، فقد جاء فى أحد هذه المخطوطات أن أقمشة مختلفة نقلت من خزانة الكسوات إلى باب السعادة (أحد أبواب قصر طوبقابو) لكى تفرش على الأرض . وهذه الأقمشة هى المعروفة باسم بانيداس Payendas .

وكانت فى البلاد مصانع أهلية للنسيج (أو طراز العامة) تمد القصر بما قد يحتاج إليه من أقمشة إلى جانب ما ينتجه طراز الخاصة .

وكان بيع المواد الخام للمصانع الأهلية من خيوط وأصباغ وذهب وفضة ، كان خاضعاً لرقابة الحكومة . ولم تقف هذه الرقابة عند هذا الحد بل كانت الحكومة تراقب أيضاً ما تخرجه المصانع الأهلية من أقمشة بفحص المنتجات وتجيز تداول المستوفى للشروط ، أما غير المطابق للمواصفات فتصادره وتوقف بيعه .

أما عن فن التصوير فقد حرص المصورون فى العصر العثمانى على جعل صورهم تمثل الواقعية تمثيلاً صادقاً ، وكان ما يميز التصوير العثمانى عن غيره من مدارس التصوير الإسلامى هو تمثيل الواقع وتصويره تصويراً صادقاً ، فقد رسموا حوادث عصرهم الحربية والإجتماعية فى صدق وإتقان ، فالراقصة تبدو فى حركات ذراعيها وساقيها وجذعها الواقعية والليونة ، والموسيقيات يحملن الآلات الموسيقية فى رفق وإعزاز ، وحرص الفنان على رسم هذه الآلات بتفاصيلها ودقائقها حتى يخيل للإنسان وهو يشاهدها أنها تصوير فوتوغرافى لا رسم فنان .

ومن المصورين المشهورين فى ذلك العصر الفنان "لونى" والفنان "عثمان" وغيرهما .

وقد عرفت فى العصر العثمانى فنون أخرى كثيرة منها فن التذهيب ، وتجليد الكتب ، وفن تطعيم الخشب بالعاج واستخدام الصدف .

وفى الحق لقد لعب العثمانيون دوراً بارزاً فى الفن الإسلامى ، وخلدوا فى سجله صفحات مشرقات ، فالعمائر العثمانية قائمة فى اسطنبول وغيرها من مدن العالم الإسلامى ، والتحف موزعة بين المتاحف المختلفة سواء فى اسطنبول أو أنقرة أو فى القاهرة أو أوروبا أو أمريكا . وهذا يدلنا فى وضوح على أننا أمام فن بارز المعالم قوى الشخصية .